

موقف المستشرقين التُّقَاد من القرآن الكريم وإعجازه البلاغي : ترجمةً ودراسةً

د. الجوهرة بنت بخيت آل جهجاه

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

كلية اللغة العربية-جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

ملخص

يسعى هذا البحث إلى ترجمة وعرض آراء بعض المستشرقين المتخصصين في النقد الأدبي فيما تعرضوا به للقرآن الكريم وإعجازه البلاغي في أثناء دراساتهم النقدية الأدبية وقد تناولوه بالتقدير الإيجابي، والاعتراف بالميزة السماوية للقرآن الكريم، وميزته الأسلوبية الإعجازية التي لا يمكن أن تكون من النظم البشري؛ فلا يصفون القرآن الكريم بالنص الحمّدي كما يجري في دراسات المستشرقين الذين لا يرون أن القرآن الكريم كتاب سماوي مقدس؛ وذلك لإطلاع القارئ العربي المسلم على جانب من الجوانب المشرقة في الدراسات الاستشراقية الحديثة.

مقدمة

يسعى البحث إلى معالجة بعض النماذج لدراسات المستشرقين النقاد الأدبيين، أو نقاد الأدب الذين تعرضوا للقرآن الكريم وإعجازه البلاغي في أثناء دراساتهم النقدية الأدبية، فنظروا في أسلوبه وارتباطه بمصدره، وعلقوا على ذلك بما يرونه من خلال دراساتهم. وقد جرى اختيار النقاد الأدبيين من ضمن المستشرقين؛ لأنهم يتميزون بدقة معرفتهم بالأسلوب العربي بمستواه الأدبي من خلال دراساتهم للشعر والنثر والنقد العربي قديمه قبل حديثه، مما يمنحهم قدرة أكبر على التدقيق والتمييز بين أساليب العربية، فلا يحكمون على القرآن الكريم بمجرد الآراء المسبقة السائدة في بيئاتهم الثقافية.

تتمثل أهمية الموضوع في أسباب اختياره الآتية:

١- العناية بالقرآن الكريم وإعجازه البلاغي في الدراسات الاستشراقية، ولا سيما أن عناية الباحثين بجانب الإعجاز البلاغي في تلك الدراسات ضئيلة إن لم تكن غير قائمة أصلاً.

٢- العناية بما تتضمنه الدراسات النقدية الأدبية الاستشراقية في سياقها من حديث عن القرآن الكريم وخصائصه الأسلوبية العالية في أثناء معالجتها للقضايا الأدبية والنقدية التي عُـنـوت بها.

٣- هناك نشاط عربي كبير وغزير في كشف جوانب التشويه وعدم التقدير الواردة في دراسات المستشرقين في مجال الإلهيات والإسلاميات والتاريخ والأدب التي تناولت القرآن الكريم بصورة مباشرة؛ وذلك بهدف التحذير منها وتبيين الغلط فيها وفي مناهجها، والعدائية في أهدافها؛ ولكن الدراسات الاستشراقية التي تحتوي الجانب الآخر الإيجابي كانت قليلة الحضور قبل سنوات مقارنةً بغيرها، وكانت العناية بها محدودة ولا سيما في أعقاب هود ثورة الاستعمار وحمود الفكر الاستعماري بناءً على ذلك في تلك الدراسات، وظهور جيل أهدافه علمية صرفة، ولديه القدرة على الوعي بمفهوم الوحي، والنبوة، والقرآن الكريم، وإعجاز هذا القرآن الكريم المتعدد الأوجه، وبخاصة الإعجاز البلاغي.

٤- تميّز دراسات بعض المستشرقين النقاد بالوعي بخصوصية القرآن الكريم الأسلوبية الأدبية ذات الإعجاز البلاغي؛ ذلك لأنهم خاصوا في دقائق قضايا الشعر العربي، بخاصة القديم منه، وخبروا الأسلوب العربي الأدبي اللغوي الرفيع والدقيق في دلالاته، ثم جاءوا إلى القرآن الكريم، فوجدوا لغة من جنس الفصاحة والبلاغة التي يعرفونها، ولكنها في مستوى ليس بشريا؛ لأنهم وقفوا على ما في الشعر من ملحوظات ونقاط ضعف مهما كانت جودة الشعر، وهذا ما لم يجده في القرآن الكريم الذي أذهلهم بعلوه وسموه وكماله.

٥- اتصال دراسات المستشرقين النقاد بالدراسات العربية القديمة حول إعجاز القرآن الكريم وقراءتها ونقدها؛ التي يرون فيها عاملاً رئيساً من عوامل تطوير النقد الأدبي العربي.

٦- حاجة الدراسات الاستشراقية المنصفة أو المحايدة نوعاً ما للعناية والإبراز من

باب الحوار والتشجيع لهذا الاتجاه^١.

هذا يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة؛ منها:

١- هل أولى المستشرقون النقاد الأدبيون القرآن الكريم عناية خاصة في

دراساتهم؟

٢- كيف نظروا إلى مصدر القرآن الكريم؟ وهل فهموا الوحي كما هو بمعناه

عند المسلمين؟

٣- هل التفتوا إلى سمة الإعجاز في القرآن الكريم؟

٤- هل أظهرت عناية بالدراسات الإسلامية العربية في إعجاز القرآن الكريم؟

وكيف؟

٥- هل حاولوا استخراج سمات الإعجاز في القرآن الكريم؟

٦- هل غلب عليهم الانسياق وراء الشبهات المثارة في ميدان الدراسات

القرآنية لدى المستشرقين؟ أم وقفوا موقفاً محايداً؟

مع كثرة الدراسات العربية التي تناولت دراسات المستشرقين للقرآن الكريم بعامة إلا أنني لم أجد دراسة تناولت موضوع بحثي بحدوده الدقيقة؛ أي دراسة موقف المستشرقين النقاد الأدبيين من القرآن الكريم وإعجازه البلاغي؛ إذ كانت العناية بالمتخصصين في مجال الإلهيات والإسلاميات والتاريخ والأدب العام - كما سبق -، وبحثي مخصص للعناية بأقوال النقاد الأدبيين من المستشرقين؛ أي الذين عُرفوا في مجال النقد الأدبي بدراساتهم الاستشراقية والاستعرابية.

ويتعامل المستشرقون مع إعجاز القرآن الكريم بمصطلح (The

Inimitability of the Qur'an)، أو بكتابته بلفظه بالحروف اللاتينية

١ انظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق،

١٢-١٤.

The Miraculous Nature of (Ijaz al-Quran), أو بوصف (

(the Quran) .^١

وبشأن المنهج المتبع سيقوم البحثُ على المنهج الوصفي التحليلي، مع قيامه في معظمه على الترجمة، ومن بعدها تصنيف الآراء بحسب محاور البحث المحددة وفق المادة العلمية المتوفرة، والتعليق عليها في المواطن اللازمة.

سيتم تقسيم البحث إلى أربعة مباحث على النحو الآتي:

١- القرآن وحي من الله باللغة العربية.

٢- القرآن معجز.

٣- جهود بعض العلماء العرب في الإعجاز البلاغي للقرآن.

٤- مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن باجتهاد المستشرقين.

ولعل الصعوبة الوحيدة التي مررتُ بها في أثناء ترجمة آراء المستشرقين هي المحافظة على عباراتهم الدقيقة التي يصفون بها القرآن، ويصفون بها الظواهر التي يرونها معجزةً فيه؛ لأن هدف هذا البحث هو عرض نموذجٍ لشريحةٍ من الدراسات الاستشراقية في رؤيتها للقرآن الكريم مع مراعاة احتمال عدم خلوّ بعض تلك الدراسات من آثار الآراء السلبية القديمة السائدة والمتجذرة في البيئة الاستشراقية.

^١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٣٧٩-٣٨٠.

تمهيد

أ- القرآن في البيئة الاستشراقية:

عرض المستشرقون لخصائص القرآن الكريم "بمحا ودراسةً، وأوردوا عليها مطاعن عدة، حاولوا من خلالها التشكيك في صحة القرآن الكريم وقدسيته وصدوره عن الله، وحاولوا الطعن في جمعه وكتابه، وحاولوا نفي إعجازه ومعرفته بالغيب ماضيا ومستقبلا، وحاولوا إيراد مصادر عديدة له قسّموها بين المصادر الخارجية والداخلية، وأجهدوا أنفسهم في تلمّس هذه المصادر وإعادة الأحكام القرآنية إليها، وحاولوا التشكيك في صحة أسلوبه وعظمته بيانه، وعلى العموم فقد حاولوا بكل السبل وشتى الطرق تلمّس مواطن الضعف فيه، وإظهار ناسخه ومنسوخه، والتفرقة بين خصائص مكّيه ومدنيّه، وإيراد الشبهات على مُحكّمه ومتشابهه، كل ذلك من أجل معارضته من أساسه، ونقض أحكامه، والتدليل على بشريته، والطعن في ظاهرة الوحي الإلهي ووصف الرسول بصفات دميمة عند تلقي ذلك الوحي من خالقه، وإرجاع هذه الظاهرة إلى الأمراض النفسية والبشرية، ونفي الاتصال الخفي بين النبي وخالقه عن طريق الوحي والإلهام".^١

هكذا كان وضع المستشرقين الغالب في تعاملهم مع القرآن الكريم، فـ"من مجالات الدراسات القرآنية عندهم الاهتمام بالموضوعات اللغوية والأسلوبية، ومن أهمها موضوعات: البلاغة، والإعجاز القرآني، ولغة القرآن الكريم، والأسلوب القرآني، وغريب القرآن، أو ما يُسمى عند المستشرقين بالألفاظ الأجنبية في القرآن الكريم، أو (الدخيل السامي) وغير السامي في القرآن الكريم، والدراسات حول معاجم القرآن الكريم.

١ نقد الخطاب الاستشراقي، د.ساسي سالم الحاج، ٢٥٦/١-٢٥٧.

واهتم المستشرقون بقصص الأنبياء في القرآن الكريم، وعقدوا مقارنات لكثير من هذه القصص بما يقابلها في أسفار العهد القديم والعهد الجديد. واهتم المستشرقون أيضا بالموضوعات المرتبطة باليهودية والنصرانية، وبالتصور القرآني للديانتين، وبالنقد القرآني لهما"١.

وتتعدد أصناف المستشرقين في دراسة القرآن الكريم؛ "سواء أكانوا متعصبين من ذاتيين، وحاقدين منكرين للوحي، أم كانوا معتدلين لبقين في تناوله بأسلوب التعمية والتدليس، أم كانوا متعاطفين موضوعيين ساعين لإثبات الحقائق العلمية بجيادية، أم كانوا مؤمنين به مدافعين عنه"٢.

وبشأن موقف المستشرقين من مصدر القرآن الكريم، فإن "أكثر المستشرقين يكادون يتفقون على أنه ليس من عند الله، وعلى أن محمدا استقى مادته من الأحبار والرهبان، الذين كان يتلقى عنهم المعلومات الدينية من كُتب العهدين"٣. "وحتى يتحقق لهم هذا الإنكار للوحي أصبحوا يرددون أن ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- ما هو إلا إبداع ذاتي، أو إشراق روحي، أو إنجاز أدبي، أو مشروع محمدي، أو توصل فكري، أو امتلاء إنساني"٤. ويرجع ذلك إلى أن مفهوم الوحي عند اليهود لا يعدو أن يكون "بمعنى الإلهام أو انبثاق الفكرة في ذهن النبي"٥.

من جهة أخرى، يقوم بعض المستشرقين بتحليل الآيات القرآنية على أنها أثر أدبي مثل أي نص أدبي آخر، ويجتهدون في إثبات ذلك؛ قاصدين بذلك -بشكل غير

١ دراسة القرآن الكريم عند المستشرقين في ضوء علم نقد الكتاب المقدس، أ.د. محمد خليفة حسن، ٣. بتصرف.

٢ آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي، د. إدريس حامد محمد، ٥.

٣ "القرآن والمستشرقون"، د. التهامي نقرة، ٢٦.

٤ آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي، د. إدريس حامد محمد، ٢٦.

٥ السابق نفسه، ٨.

مباشر- أنه من تأليف الرسول -صلى الله عليه وسلم- حتى وإن اعترف بعضهم بأنه لا يشبه آثار الأدب العربي المعروفة من شعر ونثر^١.

وإن كان المستشرقون قد تعاملوا مع القرآن الكريم بوصفه نصاً أدبياً خاضعاً لخصائص الأدب البشري، نازعين عنه سمة القدسية الدينية، فإن "هذا -في الواقع- انعكاس لطبيعة تعامل المستشرقين مع كتبهم الدينية؛ حيث يدرسونها كما يدرسون الآثار الأدبية القديمة والأساطير والملاحم الخرافية. وهذه الظاهرة تكاد تكون عامة في كتب "تاريخ الأدب"؛ حيث تعرضوا للقرآن باعتباره يمثل مرحلة من مراحل الأدب العربي، وقوموه بالمقاييس الأدبية الأوروبية تارة، وبالعربية تارة أخرى"^٢.

ومما هو ملحوظٌ على عموم الدراسات الاستشراقية أنه "عند دراسة القرآن الكريم وعلومه؛ مارس المستشرقون عملية الإسقاط متأثرين بخلفياتهم العقديّة وموروثاتهم الفكرية، ومدفعين بدافع نفسي يهدف إلى رمي القرآن الكريم بما ثبت في حقّ كتبهم المقدّسة ودياناتهم المخرفّة، محاولين بذلك الانتقاص من قدر هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي -لا محالة- يشهد له في كل عصر شهودٌ جدد بالإعجاز والعظمة"^٣.

ويجدر بالذكر "أن بعض الكتب الاستشراقية -وهي قليلة- فيها إنصاف وموضوعية علمية حول نظرهما إلى القرآن الكريم، وأنه وحى أوحى به الله -عز وجل- إلى خاتم رسله النبي الأمي محمد بن عبد الله -عليه الصلاة والسلام- بينما

١ انظر: كتاب القرآن وعالمه للمستشرق الروسي يفيم ريزفان، د. المير رفائيل

كوليف، ١٢-١٣.

٢ الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم في رؤية إسلامية، د. إدريس مقبول، ٢٢-

٢٣.

٣ منهج الإسقاط في الدراسات القرآنية عند المستشرقين، د. محمد عامر بن عبد

الحميد مظاهري، ص ١٠.

كثير من كتابات المستشرقين فيها الانتقاص من القرآن الكريم والتشكيك والإنكار"١.

ب-تعريف بالمستشرقين النقاد أصحاب الآراء المدروسة:

* روجر ميشيل آشلي ألن (Roger Micheal Ashley Allen) :
وُلد يانجلترا عام ١٩٤٢م، كان أول طالب يحصل على الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة أكسفورد عام ١٩٦٨م، خدم أستاذا للأدب العربي والمقارن في قسم لغات الشرق الأدنى والحضارات مدة ٤٣ عاما، وتقاعد في يونيو ٢٠١١م من منصبه أستاذا للفكر الاجتماعي والأخلاقي المقارن في كلية الآداب والعلوم بجامعة بنسلفانيا. شارك بامتياز في تحسين أساليب تدريس اللغة العربية في الجامعات والكليات الأمريكية. من دراساته: حديث عيسى بن هشام للمويلحي: دراسة عصر في ظل الاحتلال البريطاني، والرواية العربية: مقدمة تاريخية وحاسمة، وترجم مجموعة من قصص نجيب محفوظ القصيرة مع دراسات عنها، كما ترجم قصصا ليوسف إدريس ٢.

* مارجريت لاركن (Margaret Larkin) ، "دكتوراه من جامعة كولومبيا، قسم اللغات والثقافات في الشرق الأوسط عام ١٩٨٩م، أستاذ الأدب العربي، والأدب العربي الكلاسيكي، بروفيسورة وهي رئيسة قسم دراسات الشرق الأدنى، وقد عملت أستاذا زائرا متميزا في قسم الحضارات العربية والإسلامية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. تهتم لاركن بالعهد الكلاسيكية والحديثة من الأدب العربي، وكذلك بما هو مكتوب باللغة العربية الأدبية وبالعامية المصرية، وتُعنى كذلك بدراسة الإعجاز الأسلوبي للقرآن، وشعر أبي الطيب المتنبي، وأدب العصر المملوكي،

١ موقف المستشرقين من القرآن الكريم: دراسة في بعض دوائر المعارف الغربية، أ.د. عدنان بن محمد الوزان، ص ١-٢.

٢ انظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ١٦١/٢، و

والشعر الشعبي. من بحوثها: لاهوتية المعنى: نظرية عبد القاهر الجرجاني للخطاب، وصوت المثال الشعري العباسي" ^١.

*ويليام سميث (William Smyth): "حاصل على البكالوريوس في الكلاسيكيات من جامعة ستانفورد، وعلى درجة الدكتوراه في لغات الشرق الأدنى. وقد كتب وحاضر حول تطوير النظرية البلاغية والأدبية في العصور الأوروبية والإسلامية الوسطى" ^٢.

١- القرآن وحي من الله باللغة العربية:

تقول مارجريت لاركن بعد أن أوردت نصا لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) أو (٤٧٤ هـ) عن إعجاز القرآن الكريم: "تعبّر هذه السلسلة من التفوق في البلاغة عن الإيمان التام لدى المسلم في القرون الوسطى بالإعجاز، أو بالإعجاز الأسلوبي للقرآن. لقد كشف هذا كلمة الله، التي تشكّل معجزةً للنبي محمد، التي يُنظر إليها على أنها جمالٌ لا مثيل له" ^٣.

في عبارة لاركن عرضٌ للقرآن الكريم على أنه "كلمة الله"؛ أي إنه كتابٌ سماويٌّ بحق، وأنه معجزةٌ من معجزات النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- يتميز بالجمال البلاغي المتفرد، وهو ما أسماه العرب الإعجاز البلاغي للقرآن ^٤.

وعلى هذا المنوال يقول روجر ألن: "إن فحص المواد في اللغة العربية يبدأ بالنص الذي يحمل موقفاً مميزاً خصوصاً داخل الإسلام واللغة العربية، يُسمّى القرآن.

١ Adapted from:
http://nes.berkeley.edu/Web_Larkin/index.html
٢ Arabic Literature in the Post-Classical Period, edited by:
Roger Allen & D. S. Richards, ix.

٣ The Inimitability of the Qur'an, Margaret Larkin, ٣١.

٤ انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ٧٥-١٠٩.

لقد كانت الحاجة ماسة للمجتمع الإسلامي لتسجيل "التلاوة" الشفهية لكلمة الله التي يمكن أن يُنظر إليها على أنها علامة بدايات التحول التدريجي من الثقافة الشفهية الغالبة إلى الثقافة المكتوبة. ... وياعطاء الأولوية للقرآن، بوصفه نصاً روحياً مقدساً، بوصفه معياراً لغوياً، وبوصفه دافعاً للحاجة إلى تسجيل التراث الشعري الجاهلي في شكل مكتوب، نعترف بالموقع المركزي الذي يحتله في كل جانب تقريباً من تطوير اللغة العربية وأدبها. وبالتحليل -ولو لفترة وجيزة- فإن جمال لغة القرآن وتصويره، يربط الكتاب المقدس للإسلام بالدراسات الأدبية النقدية الحديثة للنصوص الدينية" ^١.

إنَّ أهمَّ ما في حديث آلن قوله عن القرآن الكريم: "كلمة الله" وأنه "نصُّ روحيٌّ مقدّسٌ" إبعاداً له عن الأوصاف البشرية ونسبته إلى بشر. ومن بعد ذلك بيان أهميته اللغوية؛ إذ غداً معياراً أعلى تُقاس عليه النصوص البشرية من جهة جمال لغتها وتصويرها، وكان دافعاً لشيوع الكتابة والتدوين بحرص المسلمين على تدوين طريقة تلاوته بإحكام، كما كان محرّكاً لكثيرٍ من الدراسات الأدبية النقدية للنصوص الدينية في العصر الحديث.

وكلام آلن يخلو من أيّ إساءة فهمٍ لطبيعة القرآن الكريم وإعجازه البلاغي الماثل في مبناه اللغوي والتصوير التي يتضمّنهما ذلك المبنى الفريد.

ويكرّر آلن تصوّره الإيجابي للقرآن الكريم في حديثٍ آخر له، وهو يتكلّم عن جمع القرآن الكريم وتدوينه ناقلاً تصوّر المسلمين للقرآن على أنّه "وحي الله"، "كلمة الله إلى خلقه" التي أنزلها باللغة العربية على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي هو خاتم الأنبياء؛ يقول آلن: "في وقت وفاة محمد لم يكن هناك ترتيبات قد اتُّخذت بشأن هيكل السلطة لجماعة المؤمنين الذين وحّدهم معاً. إلا أنه أوصى خلفاءه باثنين من المصادر الثابتة التي كانت ذات أهمية كبيرة لتطوير الإسلام. الأول كان -بالطبع- وحي القرآن الذي يُعد من قبل المسلمين بوصفه كلمة الله إلى خلقه، نُقلت إليهم باللغة العربية من قبل واحدٍ من رُسله أو أنبيائه، ومحمد في الحقيقة مُعيّنٌ

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٨.

بوصفه "خاتم الأنبياء". ذلك الوحي كان محفوظاً ومكتوباً من لدن أصحاب محمد، وجمع معاً لاحقاً في شكل نصي من خلال ما عُرف بالأثر العثماني المنقح، منذ عملية جمع الآيات من مصادر مختلفة، وتقديس النص الناتج، والقضاء على النسخ الأخرى (بالحرق)، كان ذلك كله قد أُنجز في عهد الخليفة الثالث، عثمان^١.

من الواضح اعتقاد روجر ألن سلامة القرآن الكريم من التغيير والتحريف، واعتقاده سلامة جمعه، وأن الأصل الثابت هو ما كان في عهد عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وذلك بخلاف ما ساد في بيئة المستشرقين من حرصهم على تأكيد الاختلافات في نُسَخ القرآن الكريم المنسوبة إلى بعض الصحابة مع احتفائهم بالروايات الآحاد والشاذة^٢، كذلك "فإنهم يصفون مصحف عثمان -رضي الله عنه- بأنه أقرب المصاحف إلى الأصل، ولا يقولون إنه الأصل الموثوق به نفسه، فهم يتحاشون الاعتراف بأن القرآن الكريم قد جُمع وفق منهج علمي رصين قوامه التوثيق والدقة والتثبت، وقد أجمع الصحابة على صحة هذا الجمع وتلقّوه بالقبول والعناية، وأخذوا بما تضمنه من الأوجه والقراءات"^٣.

وفي حديثٍ آخرٍ لألن يقول فيه: "وفي الوقت نفسه، انتشر العلماء بالتساوي بين مُدن شبه الجزيرة العربية والعراق، ودرسوا نص القرآن والتفسير؛ حيث يتم تفسير نص الوحي الإلهي للناس. وأيدوا أن أولوية القرآن كمصدر للتشريع، بالإشارة إلى العبارات الواضحة في النص فيما يتعلق بمسائل مثل الطلاق والميراث، وقالوا إن سنة الرسول التي جُمعت في الحديث هي أساسٌ صالحٌ لتدوين الممارسة الإسلامية"^٤.

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٢٨.

٢ انظر: مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، أ.د. حسن بن إدريس عزوزي، ٩-١٠.

٣ مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، أ.د. حسن بن إدريس عزوزي، ١٠.

٤ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٥٨-٥٩.

يتضح - غير إقرار أنّ بأنّ القرآن الكريم وحيّ إلهيّ من الله تعالى إلى رسوله ليبلّغه للناس - تفريق أنّ بين القرآن الوحي الإلهي، وحدث النبي -صلى الله عليه وسلم- مع إقراره في كلامه بأنهما مصدرًا للتشريع الأوّلين للمسلمين.

ويذهب أنّ في مسارٍ آخر يتعمّق في تصوّر صاحب الكلام في القرآن الكريم؛ أي الله -سبحانه وتعالى- فيقول: "إن وراء مثل هذه القضايا توجد أسئلة أعمق للطبيعة التوحيدية. كيف تمثّل الله في القرآن، وما علاقته بالبشر؟ يؤمن المسلمون أن (المتكلّم) في القرآن الذي يأمر النبي أن (يقرأ) هو الله، وهذا ما قد يساعد على شرح استخدام الكلمة العربية الكلام (والتي تعني الخطاب) لتقديم دراسة التوحيد. إن التأكيد في طبيعة كلمة الله لخلقه أنّها تنتقل عن طريق رسوله محمد؛ حيث بدأ بتوحيد الله نافيًا بقوة قاطعة إمكانية وجود شريك له. لقد كان التركيز الأساسي لعلم التوحيد هو دراسة وحدانية الله، (توحيد الأسماء والصفات). إن الله هو المتعالي والقوي، وصاحب الوحي لخلقه. يؤكد نص القرآن وحدانية الله، وقوته، وسيطرته على البشر، لكنه يأمرهم أيضًا بالابتعاد عن الخطيئة، وأن يعيشوا حياةً فاضلة"^١.

يعود أنّ لتأكيد أنّ المتكلّم في الخطاب القرآني كلّهُ هو الله -سبحانه وتعالى- ويزيد على ذلك أنّ الوسيط بين الله والبشر هو الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي أنزل عليه القرآن الكريم، ويركّز على مسألة تصوّر الله في الرسالة التي أداها محمد -صلى الله عليه وسلم- حيثُ البدء بتوحيد الله -سبحانه وتعالى- ونفي وجود الشريك له نفيًا قاطعًا، وهذا تثبيّت لتوحيد الأسماء والصفات التي يتعبّد بها المسلم ربّه الذي أوحى القرآن الكريم إلى رسوله -صلى الله عليه وسلم- ليبلّغه إلى خلقه كافة؛ فالله هو الأحد الصمد، المتعالي القوي، المالك لمخلوقاته كلّها.

يعرض أنّ بعد ذلك ما واجه القرآن الكريم من قبّل أهل مكّة بخاصة الذين شكّوا في صدق القرآن الكريم من جهة أنّه وحيّ سماويّ؛ لأنهم لم يستطيعوا التمييز بينه وغيره من أنواع الكلام العربي الديني الذي يعرفونه كسجع الكهّان مثلاً، مع أنّه

^١ ibid, ٦٠.

نزل عليهم بلغتهم العربية ويتضمن سمة الإقرار به وبصدقه؛ يقول آلن: "يمكننا أن نرى في رسالة القرآن التي نزلت على أهل مكة ليس فقط بلغتهم الخاصة ({ قُرْءَانَا عَرَبِيًّا }، كما في سورة يوسف في الآية ٢)، أن القرآن أيضا بناءً رسمي يمكن الاعتراف به. إن هذه العملية من (الاعتراف) أصبحت مشكلةً بالنسبة لحمد في رسالته النبوية، وهذا واضحٌ من خلال نصّ القرآن نفسه: لقد كان من الضروري التمييز بين الوحي من الله لنبيه وهذه الأنواع الأخرى من الكلام الديني، والآيات ٤١ و ٤٢ من سورة الحاقة (رقم ٦٩) لا لبس فيها حول هذا الموضوع: { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ } ٤١ { وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ } ٤٢ { نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } ٤٣ }^١. ويختتم بقوله: "إن القرآن فريدٌ من نوعه: حيث إنه لم يكن نثرًا ولا شعرًا، ولكنه وحيٌ من الله إلى خلقه"^٢.

ويقصد آلن أن القرآن الكريم ليس من جنس ما عرفه العرب من أنواع الكلام الأدبي والديني مع أنه نزل عليهم باللغة العربية لغتهم ولغة شعرهم الجاهلي الذي يعتزون به ويفهمونه؛ يقول آلن: "في عدد من آيات نص القرآن يتضح لنا أنه صيغ بلغة عربية واضحة ({ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } ١٠٣)، انظر سورة النحل، رقم ١٦، الآية ١٠٣)، على سبيل المثال، وتوجد في سورة الشعراء (رقم ٢٦، الآية ١٩٥). وعلاوة على ذلك، فإن أصل كلمة المبين توجد في فقرة مهمة أخرى تتعلق باللغة: (سورة إبراهيم، رقم ١٤، الآية ٤) حيث يقول الله: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ٤. إن العبارات والتقارير والأسئلة الضمنية ({ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ ... }) التي تم تضمينها في سورٍ من القرآن جعلت من الواضح أن رسالة الله في الواقع كانت تُتلى

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٨٧.

٢ Ibid, ٨٧-٨٨.

عن طريق لغة محمد؛ حيث كانت هذه اللغة مفهومة لمستمعيه. ونظرا للدور المهم والكبير الذي لعبته لغة القرآن في كل جانب من جوانب حياة المجتمع المسلم، فإنه ليس من المستغرب أنه كان هناك مناقشة علمية كبيرة للخصائص اللغوية والسياق الاجتماعي للغة شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت من الوحي إلى محمد. ومع ذلك، فإنه من المتفق عليه عموما أن لغة القرآن ولغة الشعر الجاهلي بهما أساسا الخواص والمزايا نفسها. وهناك أحد الأمثلة لهذه الميزة وهو يوجد في الآية ٤ من سورة القدر (رقم ٩٧): { نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا }؛ حيث إن الفعل (تَنَزَّلَ) يفتقر إلى السابِقة (ت) للإطار الزمني غير المكتمل الذي يميز التوقعات المورفولوجية لقواعد اللغة العربية كما دُوِّنت في وقت لاحق"١.

إن ما سبق من كلام مارجریت لاركن وروجر ألن يتضمن اعترافا صريحا بأن القرآن الكريم وحي الله المقدس الذي أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وهذا موقف متميز؛ إذ "إن أكثر المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن مصدر القرآن الكريم، ولا عن الوحي الذي أنزل عليه (أي على النبي ٤)، فانساق الكتاب الغربيون في اتجاههم يُرددون الفكرة نفسها من غير بيّنة، بل إن المتعصبين منهم عندما يتحدثون عن الرسول والقرآن والإسلام، تتحول ألسنتهم وأقلامهم إلى معاول هدم"٢.

ومن نماذج تصوّرات المستشرقين السلبية للقرآن قول جورج سيل (George Sale) (١٦٩٧-١٧٣٦م) في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن الكريم الصادرة عام ١٧٣٤م: "أما أنّ محمداً كان في الحقيقة مؤلّف القرآن والمخترع الرئيس له فأمرٌ لا يقبل الجدل، وإن كان المرجّح -مع ذلك- أنّ المعاونة التي حصل

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٩٤-٩٥.

٢ "القرآن والمستشرقون"، د. التهامي نقرة، ٣٢.

عليها من غيره في خطته هذه لم تكن يسيرة. وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك" ١.

ومثل ذلك قول هاملتون جيب (Hamilton Gibb) (١٨٩٥-١٩٧١م): "سَعِينَا فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ لِنُبَيِّنَ أَنَّ الْقُرْآنَ سَجِلٌّ لِتَجْرِبَةِ مُحَمَّدٍ الْحَدَسِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةٍ. وَأَنَّهُ الْمُنْبَعُ الَّذِي يَعُودُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ لِيُنْعَشَ رُؤَاهُ الرَّوْحِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى" ٢.

وهذان تصوران بعيدان عن الحقيقة والإنصاف العلمي.

٢- القرآن معجز:

إن الموقف الذي ساد في البيئة الاستشراقية هو عدم الإقرار بإعجاز القرآن الكريم، ومن نماذج ذلك ما ورد في دائرة المعارف البريطانية (Encyclopedia Britannica) تحت مادة القرآن: "القول بإعجاز لغة القرآن جمالاً وصفاءً مما يعجز عن محاكاته الإنس والجن حتى فصحاء العرب وبلغاؤهم أمر غير مقبول" ٣. وحين يجد الباحث بعض المستشرقين يقولون بخلاف ذلك يتجه بعنايته إلى تلك الآراء وتقريبها، وذلك كما يظهر الإقرار بإعجاز القرآن الكريم لدى المستشرقين الثلاثة موضع هذه الدراسة بحسب نصوص أقوالهم الآتية:

تقول مارجريت لاركن: "إن كيفية تعامل مختلف أهل التوحيد مع مفهوم الإعجاز، كانت مرتبطة مباشرة مع معاملتهم لموضوع الجوهر الإلهي. إنها لم تكن مسألة تفصيلية، ولكنها مسألة تذهب مباشرة إلى صميم نظرتهم لعلاقة الله بوحيه وبصفاته بشكل عام. في الوقت نفسه حيث إن مفهوم الإعجاز في الكتاب أشار إلى

١ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، ٨٧.

٢ النُّظْمُ وَالْفَلَسَفَةُ وَالِدِينُ فِي الْإِسْلَامِ، هاملتون جيب، ٧٨، وانظر كذلك: ٦٧-٦٨، و٧٢.

٣ موقف المستشرقين من القرآن الكريم: دراسة في بعض دوائر المعارف الغربية، أ.د. عدنان بن محمد الوزان، ٢٣.

شكله اللغوي فضلا عن مضمونه، فإن الإعجاز كان سؤالا بلاغيا بقدر ما كان توحيديا، وفي الجو المركزي للعلوم الإسلامية في القرون الوسطى، كان سؤال الإعجاز في القرآن بالضرورة موضوع البحث بين العلماء في تخصصات النحو والبلاغة وعلم التوحيد على حد سواء. من خلال إنشاء فكرة أن القرآن سوف يحكم ليكون معجزا عندما يُنظر إليه من وجهة نظر المعايير المعروفة للتميز الأسلوبي، فرض مذهب المسلم مطلبا متفقا مع وجهة نظر الباحث الذي تعامل مع الإعجاز: أي شيء عن ظاهرة (علم الكلام) يجب أن يكون متسقا مع وجهة نظر العلماء في (كلام الله)^١.

تعرض لاركن مسألة إعجاز القرآن الكريم والقول فيه من خلال طبيعة دراستها المتجهة إلى دراسة اتجاهين من اتجاهات البحث في إعجاز القرآن الكريم (المعتزلي والأشعري)؛ لذلك تنطلق من قدسية مفهوم الإعجاز لدى العلماء العرب؛ تلك القدسية المنطلقة من ارتباط فكرة الإعجاز بتصور الله -عزّ وجلّ- وصلته بوحيه القرآني، ثم ترى أن فكرة الإعجاز تتجه إلى المفهوم اللغوي البلاغي قبل المضموني؛ فالقرآن الكريم معياراً للتميز الأسلوبي في العربية، وهذا ما قالت به بعض الآيات، وقد اشتغل عليه علماء النحو والبلاغة والتوحيد، وكذلك علماء الكلام الذين يتقيدون بأن يكون كلامهم في الإعجاز متفقا مع ما يراه العلماء في كلام الله الكريم، وهذا مجال واسع للأخذ والرد بين العلماء المسلمين، وما يهمننا هنا هو إقرار لاركن بفكرة إعجاز القرآن الكريم دون إنكار لها أو تقليل من صحتها.

وقد سبق في الجزء الأول من البحث إيراد كلام لاركن الصريح بأن القرآن الكريم سلسلة من التفوق البلاغي الأسلوبي الفريد تماما، وأنه معجزة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-^٢.

١ The Inimitability of the Qur'an, Margaret Larkin, ٣٢.

٢ See: ibid, ٣١.

من ناحيةٍ أخرى يُصرِّح روجر ألن بأن القرآن الكريم هو النموذج الأعلى والمعجز في اللغة العربية الذي يُقاس عليه، وبما أنه قرآنٌ عربيٌّ الوحي والتزول فقد حفظ للغة العربية قواعدها الأساسية بناءً وتشكيلاً من خلال تشريعاته؛ يقول ألن: "إن المقياس الأساسي لهذه اللغة العربية هو معيار القرآن بوصفه نموذجاً أعلى ومعجزة للعربية. لقد افتتح بيان القرآن الواضح بأنه "قرآن عربي" وأن كل الوحي المقدس نزل إلى الناس بلُغتهم، افتتح حركة التوحيد التي حافظت -إلى درجة كبيرة- على الأنماط الكلاسيكية لتشكيل اللغة وبناء الجملة"^١.

ويكرّر الفكرة نفسها حين يقول: "هناك مسألة اللغة: أعمال الأدب كانت تؤلّف باللغة العربية المكتوبة (العربية الفصحى) حيث كان القرآن هو النموذج (المعجز)"^٢.

ويدخل ألن إلى ذكر ما جاء في القرآن الكريم من تحدّ صريح للعرب في معارضته التي لم يُفلحوا فيها، ويعدّ هذا من علامات إعجازه؛ يقول: "يتم تغليف كلّ هذه الميزات من خطاب القرآن في مذهب ديني ونقدي لـ(إعجاز) وحي الله لنبيه محمد، وهو محفوظ بآيات التحدي، مثل { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (سورة البقرة، رقم ٢، الآية ٢٣)، و { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } (سورة الإسراء، رقم ١٧، الآية ٨٨). إن وجود هذا المذهب قد ردع معظم الكتاب عن محاولة مواجهة التحدي الضمني"^٣.

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٢٠.

٢ ibid , ٢٢٢-٢٢١.

٣ ibid, ٩٦.

ويذهب آلن إلى أن تفوق القرآن الأسلوبى على كل ما عرفه العرب جعل نفوذه على الأدب العربي عظيماً وكذلك على دراسة ذلك الأدب، فأصبح الأدباء لا يجدون أنفسهم في حاجة إلى الاستشهاد بغير آي القرآن البليغة إلا فيما قلّ وندر؛ يقول آلن: "إن مبدأ الإعجاز، الذي يعزز إعجاز القرآن، كان يحتاج إلى قطعه عن عبارات البشر التي صيغت في أشكال مثل الشعر والسجع؛ وقد يتصادق وحيه مع الفترة واللغة، ولكنه من حيث التعريف فريد من نوعه. هذا الإعجاز، في أثناء تشييط عدد قليل من أي محاولة للمعارضة، أدى مع ذلك إلى تعزيز نفوذه على الأدب العربي وعلى دراسته. وعلى الرغم من الطبيعة الشفهية التي تظهر بوضوح في الوحي الأصلي، فإن شكله كنص قويم والدور الذي يقوم به داخل المجتمع الإسلامي قد حوّل إلى (كتاب). لقد أصبح نصاً نموذجياً، وتظهر لغته، وبنائه، وصوره كاملة في الخطاب العربي. إن الاستشهادات من النص تحدث في جميع العهود والأنواع، ومن خلال العمليات التقليدية من الحفظ، فإن التوعية المجتمعية لكل كلمة به هي أن هذه الاقتباسات والتلميحات نادراً ما تحتاج إلى أي مرجع آخر"^١.

يعرض آلن -بعد ذلك- أثر فكرة إعجاز القرآن الكريم في تحريك البحث العلمي والتأليف لدى علماء المسلمين وبخاصة في مجال المعجم وفقه اللغة وقواعدها التي أصبحت أدوات رئيسة لعلماء التفسير القرآني، ومن ثم أصبحت أدوات لتطوير النقد العربي ومناهجه وأدواته؛ يقول آلن: "إن التحدي لتسجيل القرآن، وتدوينه، وفهمه -كما لحظنا أعلاه- قدّم للمجتمع المسلم مجموعة واضحة من الأولويات البحثية في مجالات المعاجم، وفقه اللغة، والقواعد. أصبحت الأعمال المبكرة في هذه المجالات هي الأدوات التي وضع بها مجتمع العلماء التراث التفسيري، وتأويل (تفسير) القرآن الذي احتاج إلى تطوير وسائط صارمة من تحليل النصوص والتعليقات التي كان لها تأثير عميق في التقليد النقدي"^٢.

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٩٩.

٢ ibid, ٣٧٩-٣٨٠.

ويختم أنّ حديثه عن إعجاز القرآن الكريم بأنّ أكبر دلائل إعجاز القرآن الكريم هي أنه معجزة خالدة في ذاته، لا تُدرکه قدرات البشر؛ يقول: "من هذه الاهتمامات بتفسير القرآن وميزات خطابه، انتقل العلماء إلى موضوع آخر، وهو الذي يجد جذوره في النص نفسه، في استجابة للتحدي لإنتاج معجزة، عندما أُهم محمد بالرد بأن القرآن نفسه هو المعجزة. هذا الوحي هو أصل مدرسة الكتابة النقدية التي تحرك النقاش حول القرآن من العمليات المبكرة من حيث ربطه بالبيئة اللغوية (وخصوصا السوابق الأدبية) إلى تحديد إثبات إعجاز القرآن؛ حيث إن القرآن هو المثال الأبرز للخطاب العربي، وهو مختلف ومتفوق على الأنواع الأدبية التي هي من تأليف البشر"^١.

وعلى صعيدٍ آخر يتحدث ويليام سميث عن فكرة إعجاز القرآن الكريم من خلال ما لحظه من عناية العلماء المسلمين العرب بالتحليل النحوي ليفهموا ماذا يقول آي القرآن الكريم، وفوق هذا اهتموا بأمرٍ آخر وهو كيف يقول القرآن الكريم ذلك من خلال بناء آياته؛ مما أثبت تفرّد بنائه اللغوي، وأنتج أعمالاً نقديةً ثريةً؛ يقول سميث: "إن أهمية القرآن في الحياة الفكرية توفر سبباً رئيساً لتركيز العلماء العرب على التحليل النحوي. من بداية العصر الإسلامي سبر العلماء المسلمون أعماق القرآن. لقد كانوا مهتمين ليس فقط بفهم ماذا يقول النص، ولكن أيضاً مهتمين بإثبات أن القرآن نقل رسالته ببلاغة أكثر من أي شاعر. إن الاعتقاد بإعجاز القرآن وُلد نوعاً كاملاً من الأعمال النقدية، أشهرها على الأرجح دلائل الإعجاز للجرجاني (ت ٤٧١/٤٧٤هـ) نفسه المذكور أعلاه. لقد أَلّف كُتّابٌ من مثل الجرجاني ليثبتوا أن أسلوب القرآن كان بحق يفوق قدرات أيّ كاتبٍ عربي"^٢.

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٣٧٩.

٢ Arabic Literature in the Post-Classical Period, edited by: Roger Allen & D. S. Richards, "Criticism in the post-classical period: a survey", William Smyth, ٣٨٩.

هذه بعض النماذج من إقرار بعض المستشرقين النقاد الأدبيين بإعجاز القرآن الأُسْلوبي البلاغي، وتتميز هذه النماذج حين نضعها بإزاء نصٍّ من نصوص المستشرقين الذين ينظرون إلى فكرة إعجاز القرآن الكريم نظرةً سلبيةً مختلفةً في مفهومها؛ وذلك مثل قول هاملتون جيب وهو يتحدث عن القرآن الكريم: "وليس غريباً أن لا يجد المسلم في أيِّ كتابٍ مقدّسٍ آخر شيئاً من هذه الصفة الشعرية الشعورية، وهذه القوة على تأييد ملكة الروح الحدسية وتقويتها، والطفرة الصاعدة للعقل والروح كي يقفا من خلال تجربة محسوسة على الواقع الكامن وراء الظواهر الزائلة في عالم المادة، غير أنّ هذا ليس هو كلّ شيءٍ هنالك؛ إذ تقف شخصية محمد نفسه مرتبطةً ارتباطاً لا انفصام له بالقرآن بروابط من المشاعر الحارّة التي يُسبغها الحب الإنساني، مكتملةً للقدرة العقلية في تعاليمه وللجوانب الشعورية في لغته"^١.

وجيب هنا ينظر للقرآن أولاً على أنه من تأليف الرسول -صلى الله عليه وسلم وتوّه عن ذلك- والأمر الثاني أنه يفهم هذا التميز والإعجاز في لغة القرآن الكريم على أنه شعرية وحالة شعورية طاعية ناتجة عن تلاحم محمد -صلى الله عليه وسلم- مع النص الذي يرى جيب أنه قد أُلّفه بقدراته العقلية والنفسية الفذة؛ وهذا تصوّرٌ سلبيٌّ لا أساس له من الصحة.

٣- جهود بعض العلماء العرب في الإعجاز البلاغي للقرآن:

تفتتح مارجريت لاركن دراستها بتوضيح ما ستقوم به قائلة: "في الصفحات الآتية سأقوم بدراسة الآراء التي عُقدت من قبل اثنين من العلماء المسلمين المهمّين في العصور الوسطى، القاضي أبو الحسن عبد الجبار^٢ (ت ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م) وأبو بكر

١ النُّظْم والفلسفة والدين في الإسلام، هاملتون جيب، ٧٥.

٢ اعتمدت مارجريت لاركن في قراءة آراء القاضي عبد الجبار وتوثيقها على النسخة الآتية: المغني في أبواب التوحيد والعدل (عشرون مجلداً)، القاضي أبو الحسن، عبد الجبار، مطبعة دار الكُتب، القاهرة، ١٩٦٠-١٩٦٩م.

See: The Inimitability of the Qur'an, Margaret Larkin, ٤٧.

عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني^١ (٤٧١هـ/١٠٧٨م)، فيما يخص (الكلام أو الخطاب) الذي شكّل أساساً لفهمهم للإعجاز القرآني^٢.

ثم تُصرّح لاركن بمهدفها من دراستها، فتقول: "إن الهدف من الدراسة الحالية أكثر محدودة. من خلال وصف كيف أن المفهوم الأساسي لعلم الكلام يتم التعامل معه من قبل كل من علمائنا، آمل أن أوضّح كيف أنّها قد قدّمت حجر الزاوية لاثنتين من وجهات النظر المختلفتين إلى حد كبير عن الوحي القرآني، وفي الحقيقة عن الكلام بوجه عام"^٣.

واختيار لاركن لوجهة نظر عالمٍ معتزلي وآخر أشعري دليل على استيعابها لما دار في البيئة العربية لدى علماء المسلمين؛ إذ كانت العناية بالبحث عن الإعجاز القرآني بارزة لدى المتكلمين، وبخاصة المعتزلة والأشاعرة، ومبينة على مسألتين: كلام الله تعالى وخلق القرآن^٤، وقد قادهم البحث في الإعجاز القرآني إلى الإعجاز البلاغي للقرآن^٥.

ومن البداية تعي لاركن التناقض بين هذين العالمين اللذين اختارتهما؛ تقول:
"يقدم الاثنان تناقضا في علم التوحيد وكذلك في المنهجية"^٦.

١ اعتمدت مارجریت لارکن في قراءة آراء عبد القاهر الجرجاني وتوثيقها على النسخة الآتية: دلانل إعجاز القرآن، عبد القاهر الجرجاني، مكتبة الخانجي، القاهرة، حوالي ١٩٨٤م.

See: *The Inimitability of the Qur'an*, Margaret Larkin, ٤٧.

٢ *ibid*, ٣٢-٣٣.

٣ *The Inimitability of the Qur'an*, Margaret Larkin, ٣٣.

٤ انظر: التوجيه البلاغي لآيات العقيدة في المؤلفات البلاغية في القرنين السابع والثامن الهجريين، د.يوسف ابن عبد الله بن محمد العليوي، ص ١٩-٢٠.

٥ انظر: السابق نفسه، ص ٢٢.

٦ *The Inimitability of the Qur'an*, Margaret Larkin, ٣٣.

وتتنبى لاركن بقولها: "إن المقارنة بين هؤلاء العلماء -وهما الأول رجل دين معتزلي، والثاني عالم نحوي وبلاغي أشعري- تمثل محاولة لتحليل هذه الثقافة الإسلامية في القرون الوسطى وفقا لشروطها، ضمن المعايير التي تضعها لنفسها. في كثير من الأحيان تُفرض فئات التخصصات العلمية والنماذج المستمدة من الغرب بشكل مصطنع على الثقافة في العالم الإسلامي. إن التحدي الذي يواجهه الحلل الغربي هو الأخذ من النصوص نفسها، بدلا من محاولة إجبارها لتتوافق مع توقعاته المحددة مسبقا"^١. ولاركن هنا تُشير إلى معضلة علمية أمام المستشرقين؛ إذ من المعروف عن بعضهم أنهم يقومون بإسقاط أفكارهم المسبقة على الأفكار الإسلامية، فيقعون في أخطاء علمية شنيعة، والحل لذلك هو أن يقرأ المستشرق المعلومة الرئيسة من مصدرها العربي المكتوب؛ تجنباً لإساءة الفهم والتصوّر، وهذا ما صنعه لاركن في تعاملها مع مؤلّفَي هذين العالمين في إعجاز القرآن الكريم.

ومن البداية تنظر لاركن إلى بعض آراء عبد القاهر في إعجاز القرآن الكريم على أنها -في جزءٍ كبيرٍ منها- استجابةً لآراء القاضي عبد الجبار^٢، ومن بعد ذلك أطالت لاركن في مناقشة بعض أفكار القاضي عبد الجبار عن الكلام بعامة^٣.

وتلخّص ما استنتجته من كلام القاضي عبد الجبار بخصوص الإعجاز القرآني في الجزء السادس عشر من كتابه (المغني)، فتقول: "بهذا البيان الأخير فقد وصل القاضي عبد الجبار لصياغة محدودة كان يرغب في إعطائها لإعجاز القرآن. إن الصعوبة في

١ ibid, ٣٣.

٢ See: The Inimitability of the Qur'an, Margaret Larkin, ٣٣. وانظر: بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية، د. عبد الفتاح لاشين، ٤٨٩-٥٣١، والمدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، د. محمد بن علي بن محمد الصامل، ص ٤٧-٤٨.

٣ See: The Inimitability of the Qur'an, Margaret Larkin, ٣٣-٣٨.

التعبير تحدث بسبب عدم وجود "معرفة ترتيب الكلام"، وعلى العكس فإن التميز في الخطاب مستمد من المهارة في ترتيب الكلام. "سواء هنا أو في مناقشته للإعجاز في المجلد ١٦ من المغني، فالقاضي عبد الجبار يخلص بالذكر أن ما لديه في عقله هو ترتيب الألفاظ بالنسبة له، وخلق الخطاب هو مثل تنفيذ حرفة مثل البناء. إنها مسألة معرفة الكيفية؛ أي وجود المعرفة الكافية من الخطوات الإجرائية التي تشارك في إنتاج الكلام (المغني ج ١٦، ١٩١؛ ٢٠٢-٢٠٣؛ ٢٢٨-٢٣٠) ١.

وتضيف لاركن معلقةً على آراء القاضي عبد الجبار: "إن درجة المهارة التي يمتلكها خالق الخطاب هي التي تحدد درجة الفصاحة. يقدم لنا العالم التوحيدي تعريفاً أكثر تحديداً لهذه البلاغة وهو "وضوح التعبير وتميز المحتوى" (المغني ج ١٦، ١٩١). إن الغموض الأسلوبية في هذا التعريف للتمييز يسمح للقاضي عبد الجبار بالحفاظ على الانقسام بين الفكر والتعبير الذي هو في القلب من وجهة نظره في الكلام" ٢.

ويبدو أنها تقصد بالغموض عدم وجود تفاصيل في تحديد القاضي للإعجاز البلاغي؛ مما يمكن تفسيره بأي طريقة يشاؤها، ولا سيما بالطريقة التي تجعل الفكر العقلي منفصلاً عن الكلام المعبر به.

تنتقل لاركن للتعليق على كتاب عبد القاهر (دلائل الإعجاز) مبتدئةً بالثناء عليه، وعلى النظرية التي ابتكرها، وعلى وضوح أسلوبه في التعبير؛ تقول لاركن: "ما نتعامل معه في هذا العمل، وبخاصة في إعجاز القرآن (ويشار إليه فيما بعد بالدلائل)، هو محاولة واعية ومهمة للمواءمة في نظامه؛ حيث الجوانب التوحيدية والبلاغية أو اللغوية لجدل الإعجاز. ومن المؤكد أن عبد القاهر وضع النظرية الأسلوبية، ولكنها

١ ibid, ٣٧.

٢ The Inimitability of the Qur'an, Margaret Larkin, ٣٧-٣٨.

ليست معزولة فكرياً عن الأسئلة التوحيدية الأكبر، بل على العكس، فإنها واحدة من مبتكراته وجهاً لوجه مع هذه القضايا" ١ .

وتتابع تعليقها على أسلوب عبد القاهر التحليلي بقولها: "إن عبد القاهر في الدلائل يقول هدفه بوضوح منذ البداية. إن الإعجاز في القرآن ظاهرة لغوية، والدليل على ذلك أنه يمكن استخلاصها من النص نفسه، وملامح اللغة العربية معروفة لجميع العرب لتكوين مصطلح لوصف طبيعة هذه المعجزة. يرغب عبد القاهر في إبلاغ مستمعيه بكيفية التوجه نحو تجميع البراهين أو المؤشرات التي تدل على أن هذا النص يمتلك درجة من التميز غير قابلة للتحقق من قبل البشر (الدلائل ٣٩-٤٠). إنه يدعوهم للتخلي عن التعميم عن تميز الخطاب وبدء دعم مطالباتهم التوحيدية بالأدلة اللغوية التي هي في وسعهم لتقديرها" ٢ .

يظهر إعجاب لاركن بأطروحة عبد القاهر، فهي تُثني على الوضوح في رؤيته بعكس غموض القاضي عبد الجبار، كما تُثني على وعي خطواته المنهجية التي تجمع بين المسائل التوحيدية الدينية والمسائل اللغوية البلاغية الأسلوبية؛ فالقرآن الكريم معجزةٌ بيّنة للعرب يحتاجون إلى مَنْ يأخذ بأيديهم لتلمّس أدلة هذا الإعجاز على المستوى اللغوي مع أهم -والبشر عموماً- لن يحيطوا بسمات الإعجاز ودلائله.

تحاول لاركن أن تُقرب مفهوم النظم الذي جعله عبد القاهر مركز الإعجاز القرآني، وتشرحه بالطريقة الكلامية لدى الفكر الأشعري من جهة الربط بين النص اللغوي والكلام النفسي والمعنى العقلي في وحدة واحدة؛ تقول لاركن: "هذا هو حقاً الأساس الذي تقوم عليه وجهة نظر عبد القاهر في الخطاب. ... حيث إن النظم هو لا شيء غير متابعة ملامح بناء الجملة (الدلائل ٣٧٠)، فإن هذا يعني أن النموذج العقلي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالظاهرة اللغوية للنص، وعلى وجه التحديد، بمحتواه النحوي. عندما نقوم بترسيم المكون الأسلوبي لجزء من الخطاب، فإننا نصف قلب

١ ibid, ٣٩-٣٨.

٢ ibid, ٣٩.

النص، ما يجعله يعمل بصفته نصاً. بواسطة إدراك الشكل الأسلوبي (النظم) للتعبير المسموع (الكلام اللفظي)، فإننا يمكننا الوصول إلى الكلام النفسي حيث نقطة بدايته. عندما يتحدث عبد القاهر الجرجاني عن القرآن، ويرى أنه معجز بوصفه نصاً، ويتجسد لغوياً في النظم الاستثنائي، الذي لديه في عقله. يتم عرض الأفكار أو مضمون الوحي في شكل شفهي وهذا هو أسلوبيا وراء القوى الخلاقة للبشر" ^١.

ومن الواضح تأكيد لاركن لكون مستوى النظم القرآني فوق مستوى قدرات البشر الإبداعية في تحليله والوعي به، وهو وحيّ علويّ من عند الله -تعالى-.

تعود لاركن للموازنة بين رؤية القاضي عبد الجبار ورؤية عبد القاهر للإعجاز القرآني وسماته؛ فتقول: "وهذه هي الطريقة التي تتباعد بها دروب التوحيد المعترزي القاضي عبد الجبار والنحوي البليغ عبد القاهر الجرجاني. فيما يخص القاضي عبد الجبار، فإن القرآن معجز بسبب درجة بلاغته (الفصاحة) التي وصل إليها، وهذا هو نتاج لدرجة من المهارة في هذه "الحرفة" التي يملكها خالق الخطاب. ويرى عبد القاهر النص بوصفه تجسيدا أسلوبيا من النموذج العقلي الذي يحمل شكله اللفظي. في حين يرى عبد القاهر الجرجاني أن شكل القرآن هو انعكاس للخطاب الداخلي لصانعه، ويرفض القاضي عبد الجبار أي وحدة للفكر والتعبير" ^٢.

توازن لاركن بين رؤيتي العالمين الجليلين، فتجدهما متباعدتين كثيراً؛ لاختلاف تفسير كل واحدٍ منهما لوجه الإعجاز في القرآن الكريم، كلٌّ بحسب مذهبه ومبادئه؛ حيث القاضي عبد الجبار والفصل بين الفكر والتعبير، وعبد القاهر بخلافه؛ والقاضي عبد الجبار يرى الإعجاز في فصاحة الكلام، وعبد القاهر الذي يرى الإعجاز في نظم الكلام الداخلي.

وتواصل لاركن تعميق الموازنة وتحليلها بين الرؤيتين مفضّلةً رؤية عبد القاهر بشكلٍ واضح؛ تقول بإسهاب: "في الواقع، فإن نطاق نظرية عبد القاهر الجرجاني

١ The Inimitability of the Qur'an, Margaret Larkin, ٤٢.

٢ The Inimitability of the Qur'an, Margaret Larkin, ٤٣-٤٢.

يكشف عن وجهة النظر الكامنة وراء النص المقدس للقرآن التي تختلف اختلافا جذريا عن تلك التي يحتفظ بها المعتزلي القاضي عبد الجبار. كما رأينا، فإن هذا التوحيد يؤكد أن القرآن كان كلاما خلقه الله. إن الادعاء عكس ذلك - في رأيه - قد يعني السماح لهذا النص للمشاركة في واحدة من خصائص الله، وهي كونه أبدية. وعلى النقيض، يشير عبد القاهر الجرجاني إلى العلاقة بين الرؤية العقلية لجسد الخطاب والشكل الأسلوبي الذي يأخذه في التعبير اللغوي الفعلي، ويشبه الصيغة التي ترجع إلى الأشعرية بشأن علاقة القرآن بخالقه، حيث إن خطاب الله الأبدى ليس هو الله، ولا شيء آخر مثل الله؛ الله ليس الكلام، ولا شيء آخر مثل كلامه" ...^١.

"لذلك، على الرغم من أنه يتم رفع القرآن في نظام عبد القاهر الجرجاني إلى وضع يحتتمل أن يكون غير مقبول من وجهة نظر المعتزلة، فإن الاعتماد الصارم على النحو يعمل بمثابة مدمج في الحماية. إنه يمكن القول بأن عبد القاهر لم يكن أكثر ميلا لعزو الصفات مثل التفكير أو التخيل إلى الله مما كان عليه رفقاه المعتزلة. لقد وجد ببساطة طريقة مختلفة لتجنب ذلك. إنما في الحقيقة مقياس لعبقريته الفريدة، فضلا عن أمنه، فقد اعتمد على اختلاف مفهوم (الكلام النفسي)، ولذلك ربط فكرة "الآخرين" عن القرآن، لتأمين موقفه الأعلى ضمن نطاق الخطاب الإنساني"^٢.

يبدو وعي لاركن بالتحاذير التي يتجنبها كل واحد من العالمين بناءً على مذهبه ومعتقده، فترفع من شأن رؤية عبد القاهر التي لم تتورط في النظر إلى القرآن الكريم على أنه مخلوق، ورفع القرآن الكريم إلى منزلة أعلى من ذلك، فهو وحي الله وكلمة الله المنظومة بأسلوب فوق مستوى البشر مع حذره من نسبة صفات لم ترد بنص شرعي صريح إلى الله - سبحانه وتعالى -.

لقد تخلّص عبد القاهر من المأزق الذي وقع فيه القاضي عبد الجبار حين جعل الإعجاز كامناً في النظم القرآني السماوي، والجهد الذي على العلماء والناس بذله هو

١ ibid, ٤٤-٤٣.

٢ The Inimitability of the Qur'an, Margaret Larkin, ٤٤-٤٥.

تقصّي أدلّة هذا الإعجاز في النظم باختلاف أساليبه؛ تقول لاركن: "من خلال إسناد رأيه في الإعجاز إلى النظم، فإنه يمكن اعتبار عبد القاهر الجرجاني بأنه يقوم بتقديم حجة أقوى لمعجزة القرآن. إن النظام المفاهيمي الفريد في القرآن والذي ينتج عن النظم خاص، لا ينبثق من إنسان. يمكننا تحليل تركيبة القرآن وشرحها والإشارة إلى أسباب تفوقه، وعلى وجه التحديد فإننا قادرون على أن نختّم بالتأكيد على أن النص معجز. في هذا السياق، فإن جهد عبد القاهر الجرجاني لتحديد "الدلائل على الإعجاز في القرآن" كأساس للتوصل إلى المعرفة وهو في الواقع يقدم وفاء أكثر واقعية من الإرشاد إلى المعتزلة لاكتساب معرفة مباشرة من حقائق واجبات الدين (المعني ١٢)"^١.

وفي نهاية دراسة لاركن، التي وازنت فيها بين رؤية القاضي عبد الجبار ومنهجه في دراسة إعجاز القرآن الكريم ورؤية عبد القاهر ومنهجه، تشرح ما قامت به في أثناء دراستها وتلخصه في قولها: "إن ما حاولتُ القيام به في الصفحات السابقة هو تسليط الضوء على الأساس المنطقي وراء علاج كل باحث لمسألة ما من الإعجاز في القرآن، وهي وجهة نظره للكلام، وبيان كيف أتبع مباشرة من المظهر التوحيدي العام. ويحدوني الأمل في أن هذا قد يكون بمثابة نقطة انطلاق لإجراء تقييم أكثر شمولاً من المساهمات الفريدة من هذين الشكلين المهمين في التقليد الفكري العربي في القرون الوسطى"^٢.

لقد بذلت لاركن جهداً كبيراً في فهم أطروحتي القاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني حول إعجاز القرآن الكريم، ومن الواضح ميلها إلى رؤية عبد القاهر ونسبة الإعجاز إلى النظم القرآني الفريد، هذا مع حرصها على ربط الأفكار بالإطار المذهبي لكل من العالمين في إطار الموازنة.

١ ibid, ٤٥.

٢ The Inimitability of the Qur'an, Margaret Larkin, ٤٥.

ومن بعد لاركن يأتي كلام آلن بإشارة عامة إلى انشغال العلماء النقاد مدّة طويلة بالبحث والدّرس في مسألة إعجاز القرآن الكريم؛ يقول آلن: "بالنسبة للمؤمن، فإن القرآن هو المصدر الرئيس في المسائل التوحيدية والشرعية، ولكن بالإضافة إلى ذلك فإنه موجود يوميًا في حياة المجتمع وأفراده. وخلف جوانب رسالته -مع ذلك- فإن النص المسجّل للقرآن الكريم عملٌ مقدّسٌ، والصفات الخارقة المنتسبة إلى أسلوبه (وهي ما يُسمّى بالإعجاز) ظلّت لمدة طويلة موضع تدقيقٍ من قِبَل مجتمع النقد"^١. ويشير آلن إلى أثر إعجاز القرآن الكريم ودراسته بشكل عام؛ يقول: "إن أثر محتويات القرآن وتفسيرها من قِبَل أجيال العلماء أصبح هائلًا بشكل واضح، ولكن بالقوة نفسها يوجد تأثير أسلوب البنية والخطاب، مهما كانت الوسيلة قراءة أو استماعًا، وفي الحالة الأخيرة يوجد فنٌّ ذو مهارات عالية من تجويد النص (التجويد، حرفيًا (ما يجعله جيدًا))"^٢.

وقد عرض آلن عرضا سريعا لمساهمة الرماني (ت٣٨٦هـ)، والخطابي (ت٣٨٨هـ)، والباقلاني (ت٤٠٣هـ) في إعجاز القرآن الكريم^٣، وقد أشار إلى كتابات كل من: الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، وابن أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ)، وابن القيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، والزركشي (ت٧٩٤هـ)، والسيوطي (٩١١هـ) - رحمهم الله- في إعجاز القرآن الكريم دون تفصيل^٤.

يُشيد آلن بعبد القاهر الجرجاني وجهده في دراسة إعجاز القرآن الكريم: "إن الناقد الذي أسهم إسهاما كبيرا في تحليل إعجاز القرآن وهو الذي تم ذكر اسمه بالفعل، هو عبد القاهر الجرجاني (توفي ١٠٧٩م)، وهو بلا شك شخصية رئيسة في

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٨٣.

٢ Ibid, ٨٤.

٣ ibid, ٣٧٩-٣٨٠.

٤ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٣٨٣.

النقد الأدبي باللغة العربية، وهو الذي لديه مساهمات في تاريخ النقد بشكل عام تستحق الاعتراف بما على نطاق أوسع من ذلك بكثير. له اثنان من الأعمال العظيمة وهما دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة"١.

٤- مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن باجتهاد المستشرقين:

يتفرد روجر ألن هنا بمحاولة عرض بعض مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم من خلال تحليله لبعض الآيات القرآنية، ويعود هذا إلى أنه قد جعله هدفه من دراسته؛ يقول: "إن الجوانب الأدبية للقرآن هي التي أودّ أن أستكشفها في هذا الفصل، مع التركيز على الميزات التي لعب فيها القرآن دوراً رئيساً في تطوير التقاليد الأدبية العربية"٢. لهذا يجتهد في تحليل بعض مظاهر الإعجاز بحسب فهمه ورؤيته.

يبدأ ألن تحليله بسورة العلق التي يرى فيها مميزات فريدة؛ يقول: "ويعتقد أن افتتاح آيات سورة العلق (سورة ٩٦) يمثل أول كشفٍ من الله لرسوله، النبي محمد، إن البنية والنمط بمثابة توضيحٍ ممتازٍ لعددٍ من ميزات الخطاب القرآني. {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥} ٣".

ويعلق ألن على الآيات الكريمة بقوله: "يوضح هذا المقطع الوسيلة الأساسية للاتصال الذي وُجد في القرآن: الله، هو المتكلم، والرسول هو المستقبل، وطلب منه أن يقرأ لمستمعيه، الذين كانوا مجتمعاً صغيراً من المسلمين في البداية، ولكنه أخذ في التوسع. وقد صيغت الرسائل التي سمعها متبعو محمد في وقت مبكرٍ في مكة المكرمة في عبارات قصيرةٍ قافية؛ في المثال أعلاه فإن الكلمة النهائية في كل آية من القسمين (١-٢ و ٣-٥) تنتهي بمقطع به قافية؛ في ١ و ٢، على سبيل المثال، نجد (خلق)

١ Ibid, ٣٨٠.

٢ Ibid, ٨٣.

٣ ibid, ٨٣.

و(العلق). إن تكرار كلمة (اقرأ) أداة بنويّة أخرى. إن كلمة (اقرأ) هي الشكل الحتمي للأصل اللفظي قَ رَ أ، وهي مشتقة من كلمة (القرآن) نفسها. إن المعنى الأصلي لهذا الأصل اللفظي كان (اقرأ)؛ وعليه فالقرآن (تلاوة)، سلسلة من المنطوقات، وهي كلمة الله، التي انتقلت شفهيًا من قبل محمد إلى مُستمعيه. إنني أستخدم صفة (الأصلية)؛ لأن الأصل منذ ذلك الحين قد أضاف معنى آخر لـ(التلاوة)، وهو (القراءة). هذا التحول في المعنى السائد يمكن أن يُنظر إليه بوصفه انعكاسًا لاعتراض النص نفسه بوظيفة الكتابة وقوتها" ١.

يتأمل ألن أطراف الخطاب، فيجد أن الله -تعالى- هو المتكلم الذي يوجه الكلام للمتلقّي رسولنا الكريم محمد -صلى الله عليه وسلم- والرسالة المرسلّة متميزة في شكلها ومضمونها؛ في شكلها من جهة التكرار والفواصل المتوافقة واستعمال فعل الأمر (اقرأ) المشتق هو القرآن الكريم من جذرٍ واحدٍ هو (قَ رَ أ)، وفي مضمونها من جهة دخول لفظ القراءة بمعنى التلاوة وهو إيذانٌ بكتابة الآيات وبعتماد وظيفة الكتابة في الحياة العربية. واستعماله لكلمة (قافية) في وصف فواصل القرآن الكريم غير سديد؛ لأن القافية من مصطلحات الشعر، والأولى هو الفاصلة ٢.

ينتقل ألن إلى مظهرٍ آخر من مظاهر الإعجاز كما يراه، وهو أسماء السور التي قد تكون كلمة من داخل آيات السورة، أو قريبةً من الآيات الأولى فيها، أو في أواخرها، وكذلك ترتيب السور القائم على البدء بالأطول، ثم ما يليه انتهاءً بالأقصر

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٨٣-٨٤.

٢ انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ٩٧-٩٩، والفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، ٢٦-٣٠، والبرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٥٣/١ حيث يقول في تعريف الفاصلة: "وهي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقريئة السجع". ويعود للأمر لاحقاً فيعدل الصيغة حتى لا يُفهم منها أن فواصل القرآن قواف، فيقول: "وخصت فواصل الشعر باسم القوافي؛ لأن الشاعر يقفوها أي يتبعها في شعره لا يخرج عنها، وهي في الحقيقة فاصلة؛ لأنها تفصل آخر الكلام فالقافية أخص في الاصطلاح؛ إذ كل قافية فاصلة ولا عكس". ٥٨/١.

كما في فهمه؛ يقول آلن: "ينقسم القرآن إلى ١١٤ فصلاً تُسمّى السُّور. إن كلَّ سورة لها عنوان؛ فعلى سبيل المثال، السورة رقم ٩٦، والتي ذكرناها أعلاه، تُسمّى بسورة العلق. هذا العنوان هو كلمةٌ مذكورةٌ في نصِّ السورة نفسها. بينما في كثيرٍ من الحالات قد يكون العنوان كلمةً يمكن أن تكون بالقرب من بداية السورة، وهذا ليس هو الحال دائماً؛ ففي سورة (الشعراء)، على سبيل المثال، فإن كلمة (الشعراء) توجد في الآية ٢٢٤ من السورة. إن السورة الأولى في القرآن، والتي تُسمّى (الفاتحة)، لها مكانةٌ متميزةٌ في ترتيب النص؛ حيث إنَّها تُستخدم في الصلاة ولها وضعها الخاص: ففي داخل المجتمعات الإسلامية عملية قراءة الفاتحة شرطٌ في إتمام العقود، وبالأخص الزواج^١. وبصرف النظر عن الفاتحة، يتم ترتيب السور بحسب طولها، بدءاً من الأطول، سورة البقرة (رقم ٢) التي بها ٢٨٦ آية، وانتهاءً بعدد من السور القصيرة للغاية؛ وهي سورة الكوثر (رقم ١٠٨)، على سبيل المثال، وسورة النصر (رقم ١١٠) وكلُّ منها بها ثلاث آيات، وسورة الناس (رقم ١١٤) التي بها ستُّ آيات^٢.

ومن الظاهر أن آلن يتبع الترتيب الكوفي للآيات والسور، كما أصبح عليه أغلب المستشرقين في الوقت الحالي؛ إذ كان بعضهم يعتمد على الترتيب المختلف الوارد في طبعة جوستاف فلوجل (Gustav Fluegel) (١٨٠٢-١٨٧٠م) للقرآن^٣. ولكن آلن يخطئ حين يظن أن ترتيب سور القرآن الكريم خاضع لطول السور وقصرها، والصواب قول "الكرماني (ت ٥٠٥هـ) في البرهان: ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب وعليه كان صلى الله عليه وسلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه وعرضه عليه في السنة التي

١ هذا عُرفٌ في بعض البلدان الإسلامية، وليس فيها كلها، وليس له وجهة شرعية.

٢ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٨٤-٨٥.

٣ ملاحظات على مساهمات المستشرقين في الدراسات القرآنية، أ.د. شتيفان فيلد، ص ١٢-١٣.

توفي فيها مرتين... وقال الطيبي (ت ٧٤٣هـ): أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً على حسب المصالح ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ" ١.

من جهة ثانية، يتأمل ألن السجع في آيات السور المكية بشكل خاص، فبإيه واضحاً مع توازي الجمل في الآيات وتكرار صيغ معينة فيها؛ يقول: "في الفترة الأكثر تذكيراً، عندما رغب محمد في لفت انتباه أهل مكة إلى رسالته، كشف وحيه سماتٍ بنايئة خاصة جداً. هنا -على سبيل المثال- بداية سورة المرسلات (رقم ٧٧): { وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١) فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ٢) وَالنَّشِيرَاتِ تَشْرَا ٣) فَالْفَرَقَاتِ فَرَقًا ٤) فَالْمُلَقَّاتِ ذِكْرًا ٥) عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّع ٧) فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ ٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ٩) وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ١٠) وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْتَبِذَتْ ١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ ١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ١٤) وَيَلْ يَوْمَذِئَلَّمُكَّذِبِينَ ١٥) }" ٢.

"إن هذه الأقسام مع مرجعياتها إلى الظواهر الطبيعية، وتوازيها الملاحظ، وقافيتها النهائية والداخلية، هي سمة نموذجية لعدد من السور في العهد المكي. إن هذه السورة خاصة لافتة للنظر، من حيث إنها تبدأ بسلسلة من الابتهالات - القسم (و أو ف-)، يليه الفاعل في صيغة الجمع المؤنث والاسم في صيغة المفرد (مع تكرار بنية الصوت نفسه في بداية السور ٣٧، ٥١، ٧٩، ١٠٠، ٣، ومع أنماط الصوت المختلفة في عدد آخر ٥٢، ٥٣، ٤٥٣، على سبيل المثال). ومن ثم يستمر مع الجزء الثاني (٨-١١) حيث تُعاد السلسلة التي هي بمثابة افتتاح لعدة سور مكية أخرى (٥٦، ٨٢، ٥٨٤، على

١ الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٢١٧/١.

٢ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٨٦.

٣ يقصد سورة: الصافات، والذاريات، والنازعات، والعديات.

٤ يقصد سورتي: الطور والنجم.

٥ يقصد سورة: الواقعة، والانفطار، والانشقاق.

سبيل المثال)؛ افتتاح سورة التكوير (رقم ٨١) التي تحوي أربع عشرة عبارة من هذه العبارات. إن مثل هذا التسلسل كان متماثلاً في بنية أنواع أخرى من الوعظ (والتحذير) في مكة المكرمة بالقرن السادس الميلادي، بخاصة لدى الكهان (المفرد: الكاهن). ومع ذلك، فإن تصعيد الصور والأصوات التي كانت بدايةً لعدد من الوحي في وقت مبكر كان قد تُلّي عن طريق محمد إلى الناس الذين بمدينته الأصلية وكان رسالةً جديدةً ومثيرةً للقلق، وغالباً ما يسبقه سؤال (ماذا سوف يبلغكم عنه...؟)، وهذا السؤال تضمّن تحذيرات واضحةً بشأن حتمية حكم الله الذي ينتظر الخطاة^١.

يركّز آلن على السمات الشكلية لآيات السور المكية بخاصة ما جاء فيها من سجع وتوازٍ لم يعرفه العرب إلا في سجع الكهان، وهذا ما جعلهم يربطونه به، مع إشارته إلى القلق الذي كان يعتري أهل مكة آنذاك وتساؤلهم المستمر عن المضمون الذي سيوصله إليهم في رسالته. ويتابع حديثه عن موضوع السجع في القرآن الكريم بقوله: "يكمّن جزءٌ من المشكلة في أنّ أهل مكة قد ربطوا بين تلاوة محمد وبين قول الشعراء والكهان الذين سعوا في الحقيقة إلى استغلال الصفات السليمة للغة العربية عن طريق اللجوء إلى إيقاعات من السجع^٢، وهو الأسلوب والبناء الذي يستفيد بالكامل من الإمكانيات الصرفية للغة العربية (والتي تم وصفها في الفصل السابق، وتتضح بجلاء من قبل النص العربي الذي قُدّم للتو). وقد كانت الترجمة التقليدية باللغة الإنجليزية للكلمة العربية "نثرٌ مقفى"، وهي انعكاسٌ لاستخدام السجع في كتابة النثر وبخاصة هذا النوع من السرد المعروف باسم المقامات ... ومع ذلك، على الرغم من أن التنمية في وقت مبكر من النمط غير المعروف لنا، فإن عدداً من الميزات تُشير إلى إمكانية وجود رابطٍ للمراحل المبكرة من الشعر العربي. في حين يوجد في

^١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٨٦-٨٧.

^٢ دار نقاش بين البلاغيين العرب ودارسي إعجاز القرآن حول ما إذا كان الموجود في القرآن سجعاً أو ليس كذلك، ولا يبدو أن في القول بذلك حرجاً شرعياً. انظر: السجع القرآني: دراسة أسلوبية، هدى عطية عبد الغفار، ص ٧٦-٨٧.

الاقْتِباسُ أعلاه من سورة البقرة الآية ٧٧ القافية، والتوازي، والصور، -والخطاب المختلف الذي يميز عدداً من التعريفات الحديثة للشعر العربي- وهي أكثر من كافية للقارئ الحديث ليظهر قطعاً من عدد من السور "الشعرية"، التي كانت في مكة قبل الهجرة؛ حيث إن أياً من هذه النوعية من التشابه قد تمّ إنكاره"١.

يُشير أَلَن -عرضاً- إلى قضية قال بها كَفَّار قريش قديماً، وقال بها بعض المستشرقين حديثاً، وهي وجود مقاطع شعرية في القرآن الكريم، ومن نماذج ما لدى المستشرقين "وصف يوسف ريفلين (J. Rivlin) القرآن الكريم بأنه (مليء بالإيقاع الشعري الموسيقي لأقدم الأعمال الأدبية)"٢. وفي وصف ريفلين ذلك "إسقاط صريح للمفاهيم الدينية التي ورثها ريفلين اليهودي عن الموسيقى الشعرية التي تتصف بها أشعار (التناخ)٣"، والذي حاول ريفلين أن يحذو حذوه من حيث اللغة والأسلوب البلاغي في ترجمته لمعاني القرآن إلى العبرية، الأمر الذي أدى إلى عزوف العامة من اليهود اليوم عن الإفادة من ترجمته على الرغم من تلقّي القبول في الأوساط اليهودية المثقفة ثقافة قديمة، بينما لا نجد في القرآن الكريم -في حقيقة الأمر- ذلك الإيقاع الشعري الموسيقي في آياته، فعلى الرغم من وجود تناسق سماعي في نهايات الآيات القرآنية في السورة الواحدة؛ فليست هذه الآيات موزونة على أوزان شعرية، وليست نهايات الآيات في السورة الواحدة ذات قافية أو رويٍّ واحد مطّرد"٤.

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٨٧-٨٨.

٢ منهج الإسقاط في الدراسات القرآنية عند المستشرقين، د.محمد عامر بن عبد الحميد مظاهري، ص ١٣.

٣ التناخ هو: أكثر أسماء الكتاب المقدس العبري.

٤ منهج الإسقاط في الدراسات القرآنية عند المستشرقين، د.محمد عامر بن عبد الحميد مظاهري، ص ١٥.

والقرآن الكريم ليس فيه لا شعر، ولا كلام موزون وزن الشعر، وقد فصل في هذه القضية الباقلائي -رحمه الله- في كتابه إعجاز القرآن تحت عنوان (نفي الشعر من القرآن) وأتى فيها بالقول الفصل^١.

ينتقل أُن للحديث عن قضيةٍ أخرى يرى فيها مظهرًا من مظاهر الإعجاز، وهي الاختلاف في بناء بعض الآيات وخطابها بين المكّي والمدني والسياقات والمواقف المختلفة والآيات تتجاوز بتناسقٍ بارزٍ في السور؛ يقول: "إن الاختلافات في البنية والخطاب أصبح يُنظر إليها باعتبارها انعكاسات دقيقة ومعقولة لمدة أكثر من عشرين عاما التي تمت خلالها تلاوة الكلام؛ حيث وُضع في شكل نصي. وضمن هذا الإطار فإن وضع شرائح مختلفة من سلسلة الوحي النبوي في سور مختلفة -على سبيل المثال- والتجاوز في سورة واحدة لمقاطع من فترات مختلفة ومتباينة حول الموضوعات، كان يُنظر إليها باعتبارها خصائص الخطاب القرآني. في العبارة المباشرة من التعليقات: فإن (بعض الأجزاء من القرآن تقدم تفسيرات للأخرى)"^٢.

ينظر أُن لتزول الآيات القرآنية متفرقة، وتجاوزها في السورة الواحدة وهي ذات تواريخ نزول مختلفة على أنها خاصية من خصائص إعجاز القرآن الكريم، وهو بذلك يخرج من دائرة الموقف السلبي لدى المستشرقين من هذه القضية؛ فـ"لعل أبرز حقل قرآني مارس فيه القوم هذا المنهج هو ما تعلق بترتيب الآيات والسور في القرآن، إذ نجد معظم المستشرقين قد أبدوا في مسألة ترتيب الآيات على وجه الخصوص موقفا مخالفا لما هو مقرر لدى المسلمين من كون ترتيب الآيات أمرا توقيفيا لا خلاف فيه. فهم إذن، وانطلاقا من منهجهم التاريخي الذي يفترض ترتيبا منطقيًا يقبله العقل البشري، حاولوا افتراض ترتيبات جديدة يحكمها الهوى المجرد، وهذا الترتيب الجديد الذي قادهم إليه سلوكهم للمنهج التاريخي قد علق عليه المستشرقون

١ انظر: إعجاز القرآن، الباقلائي، ٧٦-٨٥.

٢ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٩٠-٩١.

أخطر النتائج في حقل القرآنيات، واتخذوه أكبر مدخل للطعن في صحة القرآن، وتضارب أحكامه وخضوعه إلى الظروف الزمانية والمكانية"^١.

ويتابع ألن تعليقه على خصائص القرآن الكريم الإعجازية مع انتقاد موقف بعض الغربيين السلبي منها بقوله: "إن هذه الميزات نفسها التي -ضمن تقليد الثقافة الإسلامية- تم اعتبارها مساهمة في الصفات النصية الفريدة من نوعها للقرآن، والتي أحبطت بشدة عددا من القراء الغربيين للقرآن. في هذا السياق، فإن الملاحظة الشهيرة لتوماس كارلايل (Thomas Carlyle) تضع نوعا من المقياس المعياري لسوء الفهم الثقافي. يُعلن كارلايل أن القرآن مملّ، ومرهق، ومشوش، وغير بارع،... وهو لا شيء سوى الشعور بالواجب الذي يمكن أن يحمله أي أوروبي من خلال القرآن. في حين نلاحظ نشوء (الشعور بالواجب) لكارلايل، فإنه يبدو أنه يميز دوافع عدد من الطلاب بالقرن التاسع عشر في الشرق الأوسط، يجب علينا أيضا أن نُولي الانتباه للتوقعات الغائبة التي تلون تعليقه: للمنطق التسلسلي والوحدات البنائية للخطاب المقدس التي لديها مثل هذا التأثير القوي على تطوير الأدب الإنجليزي، ولتقنيات السرد مثل تلك التي يناقشها إريك أورباخ (Auerbach Erich) في الفصل الأول من كتابه المشهور: المحاكاة. فهي توقعات مثل هذه التي يبدو أنها قد جعلت كُتاب الدراسات القليلة نسبيًا من الجوانب الأدبية للقرآن في اللغات الغربية يقومون بالتركيز على تلك السور والقطع التي تتوافق مع هذه المعايير. هناك -على سبيل المثال- سورة الرحمن، حيث في المقطع فإن قافية العنوان (ان) تصبح القافية للسورة كلها، والتكرار بعد كل آية لقول الله: { فَيَأْتِي ٱلْآء ٱلرَّيْكَمَ ٱتَّكَزَّبَ ٱن } يصنع تأثيرا لترنيم القراءة. ومع ذلك، فإن السورة التي اجتذبت انتباه المعلقين باللغة العربية وغيرها من اللغات لوحدها البنائية غير العادية، وصفات السرد بها هي سورة يوسف. حيث عناصر سرد حلم يوسف وتفسيره، ونفاق إخوته، ومحاولة إغواء يوسف عن

١ مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، أ.د.حسن بن إدريس عزوزي، ص ٢٥.

طريق زوجة بوطيفار (عزيز مصر)، ومشاهد الحبس والاعتراف هذه كلها معروفة من سفر التكوين (٣٧-٥٠) ^١.

بعد أن فنّد أَلن بعض آراء الغربيين السلبيّة في القرآن الكريم، أشار بعبارة دقيقة وحذرة إلى أن أحداث قصة يوسف -عليه السلام- "معروفة من سفر التكوين" كونه من عند الله -طبعاً مع الأخذ في الاعتبار ما أصابه من تحريف- ولاحتوائه على أمور من أحداث الأمم السابقة، ولم يقل مأخوذة منه، وفي هذا تأدّب كبير مع القرآن الكريم يخالف ما ساد بيئة المستشرقين؛ حيث يتعسف كثيرٌ من المستشرقين القول بأن القصص القرآنية مأخوذة أحداً كاملاً من القصص اليهودية والنصرانية في كتابيهما المقدّسين، وهم يسعون من خلال ذلك إلى تأكيد أن القرآن الكريم من نسج محمد -صلى الله عليه وسلم- استقى قصصه من خلال علاقته بفقرء النصارى وأخبار اليهود في مكة كما هو زعمهم ^٢.

ويتابع أَلن مركزاً على خصوصية الإعجاز في السرد في القرآن الكريم وتفردّه في قصة يوسف -عليه السلام- بقوله: "إن الطريقة المفصلة في السرد تؤسس شبكة من المواقف -وهي إخبار الحلم، والتأمر من قبل الإخوة، وصبر يعقوب الذي كان يُقدّر بطريقة كبيرة بوصفه السمة العربية منذ عصور ما قبل الإسلام، والخيانة، ومحاولة الإغواء، والحبس، ثم الشروع في الحل- واكتشاف (الخداع) من زوجة بوطيفار وأصحابه (أصبح ذلك الفكرة الرئيسة للعمل الفني في الكتابة العربية)، واللقاء مع الإخوة، والاعتراف بالذنب، وجمع شمل يعقوب مع ابنه المفقود منذ زمن طويل، وتحقيق الحلم؛ كل هذا بمثابة إطار رائع للرسالة التي نقلها محمد إلى أهل مكة بشأن قوة الإله الواحد والسلطة التي يعطيها لأنبيائه الذين اختارهم" ^٣.

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٩١-٩٢.

٢ انظر: مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، أ.د.حسن بن إدريس عزوزي، ص ٢١-٢٢.

٣ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٩٢-٩٣.

ومن الجميل ربط ألن قصة يوسف -عليه السلام- بأنها تمثّل بلاغاً لأهل مكّة محتواه أنّ الله هو الإله الواحد الفرد الصمد، مالك الملك، يعصم أنبياءه، ويؤتيهم سلطةً وقوة من لدنه.

يواصل ألن تأمل خصائص السرد في القرآن الكريم؛ فقصة يوسف وردت في سورة كاملة من أولها إلى آخرها، في حين هناك قصصٌ أخرى في عددٍ من السور، وهناك سورٌ في الواحدة منها عددٌ من القصص تترايط في سياقٍ متصلٍ يدفع بعضه ببعض؛ يقول ألن: "تحتوي سورة يوسف بالتأكيد على أطول سرد متصل في القرآن؛ حيث إنه في سياق الاستقبال الأصلي، تُثار تساؤلات مثيرة للاهتمام بشأن السياق الدقيق الذي أنزل. إن صفات السرد التي لا شك فيها جعلت منه تحليلاً مفضلاً داخل مكتبة صغيرة من أعمال تحليل الصفات الأدبية للقرآن. كما لاحظنا أعلاه، فإن القرآن يضم عدداً من الروايات والأمثال الدينية الأخرى، وبعضها متناثر في سور مختلفة. وهناك مصدر غني ببعض الروايات القصيرة وهو سورة الكهف (رقم ١٨). في سورة الكهف، نجد أولاً قصة النائمين السبعة في أفسس (الآية ٩-٢٦) التي تحكي أسطورة مجموعة من المسيحيين المضطهدين في عهد الإمبراطور ديكْيوس (٢٤٩-٢٥١م) الذين لجأوا إلى الكهف (وهو عنوان السورة) وسقطوا في نوم عميق وطويل؛ الآية ٢٥ تقول إن المدة المعنية هي ٣٠٩ عاماً. عندما استيقظوا، وجدوا أنفسهم في حقبة جديدة؛ حيث لم يعد هناك اضطهاد للمسيحيين. ... وبالعودة إلى سورة الكهف نفسها، فإننا نواجه حكاية رمزية ملحوظة متعلقة برجلين؛ حيث إن كل واحدٍ منهما لديه كرامة: إن القطعة مميزة بإطار؛ حيث إنها مقدّمة من الله لرسوله محمد. في الآية ٦٠، تبدأ واحدة من أهم حكايات القرآن الرائعة، وهي أن موسى يلتقي بشخصية تُدعى الخضر. مع شاب رفيق يشرع موسى في السعي للعثور على (مجمع البحرين)، (الآية ٦٥). وُضع موسى في تحدٍّ؛ حيث ينبغي: عدم طرح أي أسئلة تتعلق بأفعال هذا الشخص، على الرغم من أنها قد تبدو شاذة. إن سلسلة الأفعال التي بدت عنيقة وغير منطقية تلك التي يقوم بها هذا الشخص يتم شرحها في نهاية المطاف لموسى غير الصبور مثل كل البشرية. إن القصة تؤدي مباشرة إلى حكاية أخرى لكي تقدم مفتاحاً

لأصول سرد موسى، إن الرجل ذا القرنين، يرتبط عموماً بألكساندر. هذا الجزء من الحكاية، التي أشرنا إليها أعلاه: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ...}، يصف أمر الله لألكساندر للتعامل مع الناس الفاسدة بأجوج ومأجوج. إنها تنتهي أيضاً بتعبير عن حقيقة وعود الله (الآية ٨٣-٩٨) "١".

يربط أَلَن القصص المتعددة في سورة الكهف بحقيقة دينية نصّها بيان حقيقة وعود الله لأنبيائه وللشرك؛ فالقصص لها وظائف دينية تؤدّيها في القرآن الكريم مرتبطة بأساس رسالته -صلى الله عليه وسلم-.

ويختتم أَلَن هذا حديثه عن هذا المظهر بقوله: "هذه مجرد أمثلة قليلة من كثير من القصص التي يتم الاستناد إليها في القرآن من أجل تقديم التوضيحات والتحذيرات إلى مستمعي محمد. وبما أن الدراسة المعاصرة للسرد تُقرّ هذه الخطوة خارج إطار ما يسميه باختين (Bakhtin) (المناجاة)، وبما أن التحليل الأدبي للنصوص المقدسة من كل الأديان والثقافات يحتوي على عدد من أنواع السرد، والحكايات والأساطير والأمثال التي ناقشناها للتو (والأمثلة الأخرى التي لم نناقشها) فإنه يتطلب مزيداً من الدراسة بشكل واضح" ٢.

يلتفت روجر أَلَن إلى مزايا للاستعارات في القرآن الكريم مع ما تؤدّيه من وظائف دلالية خاصة تحتوي وظائف جمالية أيضاً؛ يقول: "هناك مزيد من التوضيح للربط الوثيق بين الاستعارة والدين، وغالباً ما يتم استخدام لغة القرآن مع تأثير تصويري مُمتاز. ... يستخدم القرآن استعارات العمى والصمم لنقل الشك: {مَمَّ لَهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} (١٧) صُمُّ بِنُورِهِمْ عَمِيَ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) { (سورة البقرة، رقم ٢) الآية ١٧-١٨. ... أولئك الذين يتبعون آلهة أخرى هم (الضالون)، وهم تماماً الذين لا يؤمنون

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٩٣-٩٤.

٢ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٩٤.

كأولئك الذين أزيل نورهم، وأولئك الذين قد وجههم الله للإيمان لديهم النور، وهي الصورة التي تقدم واحدة من الصور الأكثر جمالاً في القرآن:

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ } (سورة النور، رقم ٢٤، الآية ٣٥) ١.

ويقف أن على بعض التشبيهات التي يعدها كذلك من مظاهر الإعجاز البلاغي القرآني، فيذكر بعضها على سبيل الاستشهاد والبيان؛ يقول: "وجنبا إلى جنب مع مقارنات أكثر مباشرة ضمناً في التشبيهات من هذا المقطع، نجد أخريات أكثر تعقيداً في صلاحها: { يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٤﴾ } (سورة البقرة، رقم ٢، الآية ٢٦٤)؛ ويصور ذلك اليوم بقوله { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْتَانِي إِنَّا كُنَّا فَعَالِينَ ﴿١٠٦﴾ } (سورة الأنبياء، رقم ٢١، الآية ١٠٤)، وفي تصوير غضب الله ضد قوم عاد، { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١١﴾ تَنَزَّعُ النَّاسُ كَانْتِهِمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿١٢﴾ } (سورة القمر، رقم ٥٤، الآية ١٩-٢٠) ٢.

ينتقل أن للحديث عن ناحية أخيرة من نواحي إعجاز القرآن الكريم كما يراها، وهي تأثير تلاوته في المستمعين؛ يقول: "في مناقشة بناء بعض السور القصيرة في

١ Ibid, ٩٦.

٢ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٩٦.

القرآن، فإنني أولى الانتباه إلى قصر العبارات وتوازيها، وإلى التكرار والقافية، وبالأخص تلك التي ترتبط مع النمط المعروف باسم السجع. إذا تم نقل هذه الميزات من النصوص البحثية إلى العالم الصوتي، فإن تأثيرها -غني عن القول- يكون أكبر: والكلمات والترتيل، الرسالة والصوت، والجمع بين حمل أهمية الوحي إلى مستويات أعلى من التفاهم والاستجابة. إنه مطلوبٌ من ممارس التجويد أن يمتلك صوتاً جميلاً، ويتم التأكيد على الحروف الساكنة والمتحركة المحددة من خلال الاستطالة، و (ن) و (م) هي من حروف (الغنة). عندما يستخدم المرتل هذه التقنيات لإبراز ملامح التناغم في الفقرات مثل الآية ١٧ من سورة البقرة المشار إليها أعلاه: { صُمُّ بِكُمُ عُمِّيُّ }، أو آية افتتاح سورة القدر (رقم ٩٧): { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ١ }، ثم يمزج المجموعة التقنية بالصعود والهبوط في الترتيل التقليدي، ويكون الأثر على المستمع من الكلمات وحدها... فإنه يتحكم في جوّ المشاركين وعواطفهم"١.

وينتهي بالقول: "إن أجواء تلاوة القرآن بشكل واضح لديها تأثير قوي في المستمعين"٢

١ The Arabic Literary Heritage, Roger Allen, ٩٧-٩٨.

٢ Ibid, ٩٨.

خاتمة

بدأ هذا البحث بتمهيد عرض الرؤية السلبية العامة لدى بعض المستشرقين للقرآن الكريم، وأبرز القضايا التي خاضوا فيها من إنكار الوحي أو سوء فهمه، ونسبة تأليف القرآن الكريم إلى النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- ومعاملة القرآن الكريم على أنه نص أدبي بشري، تلا ذلك التعريف الموجز بالمستشرقين الثلاثة الذين وردت آراؤهم في هذا البحث.

بشأن آراء المستشرقين النقاد الأديبين الثلاثة المذكورة، اتضح فيها وعي مختلف عما هو سائد في بيئة المستشرقين؛ فهم ينظرون إلى القرآن الكريم بوصفه وحيًا مقدسًا من الله -تعالى- إلى رسوله محمد خاتم الأنبياء -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الوحي بقي سالمًا من التغيير والتحريف والاختلاف؛ لأنه محفوظ من ذلك.

كذلك اتضح إقرارهم بإعجاز القرآن الكريم في عمومته، وإعجازه في أسلوبه وبلاغته؛ حيث صدق التحدي الذي صرح به الله -تعالى- في بعض الآيات القرآنية، وقد اتضحت مع ذلك عناية المستشرقين بالموضوعية واحترام موضوع البحث النقدي لديهم، مع حذرهم من الاستسلام للآراء القديمة السائدة في البيئة الاستشراقية أو التأثير بها، بل إن بعضهم ينتقد بعض الآراء الاستشراقية والممارسات المنهجية السلبية فيها وإن لم تخل أفكار بعضهم من بعض الرواسب السلبية التي تم الرد عليها في مكانها وتصويبها بخاصة ما كان يرد لدى روجر ألن من ارتباك في رؤيته وتصوراتها في بعض الأحيان.

تظهر كذلك عنايتهم بالاتصال بالمصدر الأساسي للدراسات القرآنية، سواء بالاتصال المباشر بالقرآن الكريم والاستشهاد بآيات منه، أم بالعودة إلى بعض كتب علماء إعجاز القرآن الكريم، والاسترشاد بآرائهم حول الإعجاز، محاولين ما أمكنهم عدم التحدث من خلال الآراء الفردية والخبرات المسبقة التي تُسقط الخبرة السلبية بطبيعة الكتب الدينية كالتوراة والإنجيل على القرآن الكريم.

وآخر ما يُشار إليه، هو محاولة المستشرقين الإسهام بالوقوف على بعض ملامح الإعجاز في القرآن الكريم مع ربطها ببعض النظريات الأدبية الحديثة، بخاصة وقفة روجر ألن على بعض ميزات السرد والتصوير في القرآن الكريم. ومجرد المحاولة هو اعترافٌ بسماوية القرآن الكريم وإعجازه، وأن أسراره الجمالية ليست وقفاً على المسلم أو العربي؛ فالقرآن الكريم كتاب سماوي عالمي، وهذا يشجع على التوصية بمزيد من الترجمة في ميدان البحث المحدد.

يبدو أن عينة البحث (طائفة التُّقَاد الأديبين من المستشرقين) قد تناولت القرآن الكريم بالتقدير والاعتراف بالميزة السماوية له، وميزته الأسلوبية التي لا يمكن أن تكون من النظم البشري؛ فلم يصفوا القرآن الكريم بالنص الحمّدي كما يجري في دراسات المستشرقين الذين لا يؤمنون بسماوية القرآن الكريم، فينسبونه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم-، وإنما تعاملوا معه بوصفه نصّاً سماوياً أنزله الله - سبحانه وتعالى- على نبيّه - صلى الله عليه وسلم- مع الوقوف على ملامح من تميّزه الأسلوبي البلاغي موظّفين خبراتهم في العربية وأساليبها الأدبية البلاغية، محاولين تقديم خطاب جديد في الحديث عن القرآن الكريم من منظار دقيق مختلف.

المصادر والمراجع

١- العربية:

- آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي: عرض ونقد، د. إدريس حامد محمد، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٦- ١٨/١٠/١٤٢٧هـ.

- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٣٩٤هـ.
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة، شوال ١٤١٧هـ. الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر، ١٣٧٦-١٣٧٧هـ.

- إعجاز القرآن، أبو بكر، محمد بن الطيب الباقلائي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د.ت.

- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله، بدر الدين، محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، دار إحياء
- بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، مصر، د.ت.

- التوجيه البلاغي لآيات العقيدة في المؤلفات البلاغية في القرنين السابع والثامن الهجريين، د. يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي، ط ١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، ١٤٢٩هـ.

- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق: محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام، ط ٣، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.

-الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم في رؤية إسلامية، د.إدريس مقبول، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٦-١٨/١٠/١٤٢٧هـ.

-دراسة القرآن الكريم عند المستشرقين في ضوء علم نقد الكتاب المقدس، أ.د.محمد خليفة حسن، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٦-١٨/١٠/١٤٢٧هـ.

-السجع القرآني: دراسة أسلوبية، هدى عطية عبد الغفار، إشراف: أ.د.محمد عبد المطلب و أ.د.عاطف جودة نصر، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، ٢٠٠١م.

-الفاصلة في القرآن، محمد الحسنوي، ط٢، دار عمار، عمان، ١٤٢١هـ.
-"القرآن والمستشرقون"، د.التهامي نقرة، في كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مجموعة مؤلفين، ١/١٩-٥٧، ط١، مكتب التربية العربي لدول الخليج-المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٤٠٥هـ.

-كتاب القرآن وعالمه للمستشرق الروسي يفيم ريزفان، د.المير رفائيل كوليف، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٦-١٨/١٠/١٤٢٧هـ.

-المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، د.محمد بن علي بن محمد الصامل، ط١، دار إشبيلية، الرياض، ١٤١٨هـ.

-المستشرقون، نجيب العقيقي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
-المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي أبو الحسن عبد الجبار، إعجاز القرآن-الجزء١٦، قوّم نصه على نسختين خطيتين: أمين الخولي، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٠هـ.

-ملاحظات على مساهمات المستشرقين في الدراسات القرآنية، أ.د.شتيفان فيلد، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٦-١٨/١٠/١٤٢٧هـ.

-مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، أ.د.حسن بن إدريس عزوزي، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٦-١٨/١٠/١٤٢٧هـ.

-منهج الإسقاط في الدراسات القرآنية عند المستشرقين: دراسة تحليلية منهجية، د.محمد عامر بن عبد الحميد مطاهري، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٦-١٨/١٠/١٤٢٧هـ.

-موقف المستشرقين من القرآن الكريم: دراسة في بعض دوائر المعارف الغربية، أ.د.عدنان بن محمد الوزان، ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٦-١٨/١٠/١٤٢٧هـ.

-التُّظْم والفلسفة والدين في الإسلام، هاملتون جيب، المركز العربي للكتاب، دمشق، د.ت.

-نقد الخطاب الاستشراقي: الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، د.ساسي سالم الحاج، ط١، بيروت، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٢م.

٢-الإنجليزية:

- Arabic Literature in the Post-Classical Period, edited by: Roger Allen & D. S. Richards, 1st edition, Cambridge, Cambridge University Press, ٢٠٠٦.

- **The Arabic Literary Heritage: The Development of its Genres and Criticism, Roger Allen, 1st edition, Cambridge, Cambridge University Press, 1998.**

- **The Inimitability of the Qur'an: Two Perspectives, Margaret Larkin, Religion & Literature, Vol. 20, No. 1, The Literature of Islam (Spring, 1988), pp. 31-47, Published by: The University of Notre Dame.**

٣-المراجع الإلكترونية:

١-

<http://www.banipal.co.uk/contributors/٥٦٨/wen-chin-ouyang/>

٢-http://nes.berkeley.edu/Web_Larkin/index.html

٣-<http://www.sas.upenn.edu/~rallen/>

